تاريخه

إن المتخصصين في مجال التفسير وعلوم القرآن يكاد إجماعهم ينعقد على ظهور التفسير العلمي وكثرة المؤلفات والمحاضرات فيه من بين سائر أنواع التفسير الأخرى مما جعل كثيرًا من ا لباحثين المعاصرين يعدونه من أبرز وسائل الدعوة إلى الإسلام في عصرنا الراهن.

ويلاحظ أنه مع التضخم الكبير في عدد المؤلفات التي يمارس أصحابها التفسير العلمي إلا أن هناك إحجامًا من كثير من العلماء من الخوض في هذا المجال.

وقد كان لبعض الباحثين المعاصرين فضل السبق في طرق هذا الباب منذ فترة طويلة نسبيًا لكن وتيرة التأليف النشطة في المجال التطبيقي تبقي الحاجة قائمة لمثل هذه الدراسات التأصيلية النظرية.

التعريف بالتفسير العلمي

(عرض ومآخذ وترجيح)

سنتناول في هذه المحاضرة أبرز التعريفات التي ذكرها العلماء في هذا المجال او النوع من التفسير مع بيان المآخذ عليها بشيء من الايجاز ثم بينات التعريف المختار وهذه التعاريف هي:

١. **تعريف الدكتور صلاح الخالدي:**

التفسير العلمي: هو تفسير الآيات تفسيرًا علميًا وفق قواعد العلم الحديث وبيان المضامين العلمية للآيات وفق مقررات وتحليلات العلم الحديث.

وعرفه أيضا بقوله: هو النظر في الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية، وتفسيرها تفسيرًا علميًا، وذلك بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الحديثة في توسيع مدلولها وتقدير معناها.

٢. **تعريف أمين الخولي وموسى شاهين ومحمد حسين الذهبي:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

٣. **تعريف الدكتور محمد لطفي الصباغ:**

التفسير العلمي: هو تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية.

وهو أشبه بالتعريف السابق مع بعض التصرف اليسير في العبارات.

٤. **تعريف الدكتور عبد الله الأهدل:**

التفسير العلمي: هو تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث.

٥. **تعريف الدكتور عبد المجيد المحتسب:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها.

٦. **تعريف الدكتور فهد الرومي:**

التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن.

٧. **تعريف الدكتور أحمد أبو حجر:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يجاول فيه المفسر فهم عبارات القرآن، في ضوء ما أثبته العلم، والكشف عن سرٍّ من أسرار إعجازه.

٨. **تعريف الشيخ عبد المجيد الزنداني:**

التفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.

٩. **تعريف الدكتور زغلول النجار:**

التفسير العلمي: هو توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية.

المآخذ على التعاريف السابقة

هناك عدة ملاحظات على ما سبق من تعاريف للتفسير العلمي يمكننا ايجازها بما يأتي:

أولاً: يُلاحظ أنّ إطلاق وصف [العلمي] على هذا اللون من التفسير دون سواه فيه مجافاة للحقيقة من جهة، وغضٌ من قيمة العلوم الأخرى من جهة ثانية، ويُفهم منه أن ألوان التفسير الأخرى ليست علمية،

كالتفسير الفقهي والعقدي واللغوي، ولذا فإن الأولى تقييده بالتجريبي أو الكوني، فيقال: التفسير العلمي التجريبي، أو التفسير العلمي الكوني.

مع ملاحظة صعوبة التقييد نظرًا لانتشار هذا المصطلح بشكل كبير، مما يجعل بعض الباحثين يستخدمه مع قناعته بعدم دقته، تبعًا للمقولة ا لمشهورة: خطأ مشهور خيرٌ من صواب مهجور.

ثانيًا: في تعريف الخولي والصباغ والذهبي ولاشين والمحتسب، جاء النص على تحكيم الاصطلاحات العلمية على آيات القرآن وإخضاع عبارات القرآن لها، وفي هذا عكس للقضية، فالنص القرآني هو الحاكم على التفسير لا العكس، كما أن الاصطلاحات العلمية تشمل أربعة أمور هي: الفرضيات، والنظريات، والمكتشفات، والحقائق العلمية؛ ولذا فلابد من تحديد المراد بالمصطلحات العلمية هنا.

ويلاحظ أن القضايا الفلسفية لا علاقة لها بالعلم التجريبي والكوني، ولا تدخل ضمن مسمى التفسير العلمي عند أصحابه.

وقد مال هؤلاء المعرِّفون الخمسة إلى الإيحاء للقارئ بموقفهم الرافض للتفسير العلمي، وهو ما فطن إليه أحد الباحثين حين قال: إن كل من يُعرِّف التفسير العلمي بهذا الشكل إنما يُعرِّفه من وجهة نظره المانعة لهذا الاتجاه في التفسير.

ثالثًا: في تعريفَي الدكتور صلاح الخالدي يلاحظ تكرار كلمتي التفسير والعلمي في التعريف أكثر من مرّة، مع أن المطلوب هو إيضاح معنى هاتين الكلمتين، فقد تكررت كلمة العلم أربع مرّات في التعريف الأول، وأربع مرّات كذلك في التعريف الثاني، دون إيضاح أي أنواع العلوم يُقصد إليه في هذا اللون من التفسير.

رابعًا: في تعريف الدكتور فهد الرومي يُلاحظ أن مجرد كشف الصلة بين الآيات القرآنية وما يكتشفه العلم التجريبي ليس تفسيرًا للآية بالمعنى الاصطلاحي الدقيق للتفسير، الذي هو بيان المعنى المراد منها، وليس مجرد وصف الصلة بينها وبين ما يكتشف في علم ما.

وقد ركز التعريف على المفسر وليس التفسير، فتحدث عن (اجتهاد المفسر في كشف الصلة...) وهو عمل يقوم به المفسر، والمطلوب بيان تعريف التفسير العلمي، كما أن النص على أن يكون هذا الكشف على وجه واحد مخصوص هو (ما يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان) يحصر التفسير العلمي في دائرة الإعجاز العلمي دون سواها، ويخرج كثيرًا من الآيات القرآنية التي يمكن استخدام

بعض الحقائق العلمية في إيضاح معناها دون أن يكون في ذلك إعجازٌ بالمعنى الدقيق لمصطلح الإعجاز والا لاطلقنا عليه اسم التفسير الاعجازي الكوني بدل التفسير العلمي.

خامسًا: في تعريف الشيخ الزنداني والدكتور الأهدل والدكتور أبو حجر: يُلاحظ أن عبارة (في ضوء ما ترجّحت صحته) عند الأول، وعبارة (على ضوء معطيات العلم الحديث) عند الثاني. وعبارة (في ضوء ما أثبته العلم الحديث) عند الثالث، هي عبارات عامة غير دقيقة، ولا يناسب استخدامها في التعريفات التي تتصف عادة بالدقة والتحديد، لتكون جامعة مانعة، فهل يراد بها الاستئناس بمعطيات العلم الحديث أم الاحتجاج بها؟ وهل يعد التفسير علميًا إذا أشار من بعيد إلى بعض معطيات العلم الحديث دون ربط ذلك بمعنى الآية؟ كما أن جعل تفسير الآية القرآنية على وفق المعطيات العلمية غير مسلَّم به؛ فإن الآية لا يستمد تفسيرها من مجرد معطيات العلم الحديث. فهل ظل معنى الآية غامضًا ثم كشف عنه واتضح معناه بما ظهر من الكشوفات العلمية الحديثة؟

سادسًا: في تعريف الدكتور زغلول النجار توسع كبير في العبارة، أخرج التعريف عن كونه مانعًا، فهو يستخدم كلمة "توظيف" وهي كلمة عامة تشمل التفسير والإيضاح، وتشمل الاستفادة من المعطيات دون وصول إلى درجة الكشف والبيان.

كما أن هذا التوظيف لا يقتصر على الحقائق ا لعلمية عنده، بل إنه يرى أن المفسر إذا لم يجد الحقائق والقوانين فإنه لا حرج عليه من توظيف النظريات والفروض العلمية في تفسير الآية؛ وهو توسع غير سائغ ولا مبرر.

التعريف المختار

بعد هذا العرض لأبرز التعاريف للتفسير العلمي والمآخذ عليها يمكنا القول ان التعريف المختار والانسب لهذا العلم هو الآتي:

التفسير العلمي هو: استخدام العلم التجريبي في زيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

او هو: استخدام حقائق العلم التجريبي في زيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

وهذا التعريف نص على كون العلم التجريبي خادمًا للنص القرآني، وليس حاكمًا عليه، كما جاء في بعض التعاريف السابقة؛ كما أن التعريف قصر أثر العلم التجريبي الحديث في زيادة إيضاح المعاني وتوسيع المدلولات، لأن معاني الآيات القرآنية كانت واضحة للصحابة والسلف الصالح، وإنما أسهم العلم التجريبي الحديث في زيادة الإيضاح وتوسيع الدلالة.

وإن أردنا أن نضيّق الدائرة ونعرِّف التفسير العلمي بما يُفترض أن يكون عليه وليس بمجرد واقعه السائد، فإننا نضيف كلمة (حقائق) قبل كلمة (العلم التجريبي) لنحصر التفسير العلمي في دائرة الحقائق العلمية لا النظريات والفرضيات التي يجيز بعض المعاصرين توظيفها في فهم دلالة الآية القرآنية.

العلاقة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي

من أكثر الأسباب التي أدت إلى تباين المواقف حول التفسير العلمي قبولاً أو ردًا الخلط بينه وبين الإعجاز العلمي، حتى في أوساط بعض المتخصصين في هذا المجال، بل إن منهم من يراهما شيئًا واحدًا.

فهل كل آية تتضمن إشارة علمية في قضية كونية أو طبية أو نحوها تحمل إعجازًا علميًا بالمعنى الدقيق للإعجاز؟

وفي حين قصر بعض الباحثين الإعجاز القرآني على وجه واحد هو الإعجاز البياني اللغوي دون سواه بدعوى أن معارف الناس وقت نزول القرآن لم تدرك ما تم اكتشافه فيما بعد من العلوم الكونية والطبيعية، فكيف يسوغ حينئذٍ أن يتحدوا بما لا يملكون آلته والوسيلة إلى بلوغه إلا أن الصواب أن الله تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن في جميع جوانب الإعجاز فيه: الإعجاز البياني، والتاريخي، والإخباري، والتشريعي، والتربوي، والعلمي التجريبي؛ وفي كل عصر يبرز جانب من جوانب الإعجاز القرآني تبعًا لاهتمامات الناس ومعارفهم.

ولو سلمنا جدلاً بقصر الإعجاز على الجانب البياني اللغوي، فكم هي نسبة الذين يتذوقون اللغة ويدركون أسرار البيان فيها اليوم بالنسبة للناطقين بالعربية؟ وكم هي نسبة العرب إلى غير العرب من المسلمين اليوم؟ بل وكم هي نسبتهم بالنسبة إلى أهل الأرض جميعًا الذين تحداهم الله تبارك وتعالى بالقرآن؟.

وعلى الضد من هؤلاء فإن من الباحثين من يؤكد على أن الإعجاز العلمي "قضية مسلمة لا جدال فيها أجمع عليها المسلمون"، ويذهب بعضهم إلى تعريف الإعجاز العلمي بما يجعله مماثلاً للتفسير العلمي كما حصل من ا لدكتور غانم قدوري الحمد حين قال أن "الإعجاز العلمي يتناول دراسة الآيات التي وردت فيها إشارة إلى قضايا علمية تتعلق بالفلك أو الطب، أو علمي النبات والحيوان ونحوهما".

بل إن بعض الباحثين يتحفظ على مصطلح الإعجاز العلمي، ويرى استبداله منعًا للخلط واللبس بمصطلح: دلائل صدق القرآن.

ومن هنا فإن بيان العلاقة بين مصطلحي التفسير والإعجاز العلمي يزيل خطأً منهجيًا وقع فيه بعض المتخصصين، وكانوا فيه على طرفين، والصواب هو التوسط بينهما، فليس التفسير العلمي مرادفًا للإعجاز العلمي وإلا لاعتبرا شيئًا واحدًا، كما أنهما ليسا منفصلين متباينين، بل إن بينهما عمومًا ا وخصوصًا ودائرة أحدهما أوسع من الآخر.

فكل إعجاز علمي فهو يُعرف من خلال التفسير العلمي، وليس كل تفسير علمي قابلاً لأن يكون إعجازًا علميًا تقوم به الحجة على غير المسلمين.

إن تعريف الإعجاز العلمي ب "إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بما حمله الوحي إليه من علم إلهي ثبت تحققه ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أي مصدر بشري في عصره" يدل على وجود فرق بينه وبين التفسير العلمي ويظهر هذا الفرق من خلال على أمرين:

أحدهما: أن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي، وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القرآن كلام الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي. فكأن التفسير العلمي وسيلة لغاية: هي الإعجاز العلمي.

والثاني: أن القرآن حجة الله على الإنس والجن أجمعين، وجزء كبير من الثقلين من غير المسلمين، وغير المسلم لا يقتنع بصدق النبوة بمجرد ورود بعض الإشارات العلمية في الآيات القرآنية التي يجتهد المفسرون في استخدامها لإيضاح المعنى وهو ما يُسمّى التفسير العلمي. إنما يُحتج عليه بما يثبت قطعًا استحالة معرفة البشر له وقت نزول القرآن، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يكشف الله للناس بعد ذلك من حقائق العلم التجريبي ما يكون مذكورًا في القرآن فهذا هو الإعجاز العلمي.

المحاضرة الثانية

التفسير العلمي بين المنهج والاتجاه

من الباحثين من عدَّ التفسير العلمي منهجًا من مناهج المفسرين . ومنهم من جعله اتجاهًا من اتجاهات التفسير في العصر الحديث .

ومع أن البعض يرى أن هذا التقسيم هو أمر هامشيّ لا اعتبار له.

إلا أن الحقيقة خلاف ذلك فثمة فرق كبير بين الاتجاه والمنهج يتضح من خلال الرجوع إلى معناهما اللغوي والاصطلاحي.

فأما الاتجاه فهو مأخوذ من الوجه أو الوجهة،كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:٧٩]، وقال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٢].

جاء في اللسان: «وجه كل شيء مستقبله.. والجهة والوجهة جميعًا: الموضع الذي تتوجه إليه وتقصده، وضل وجهة أمره أي مقصده.. والوجاه والتجاه: الوجه الذي تقصده» .

والاتجاه في الاصطلاح: الهدف الذي يتجه إليه المفسِّر ويجعله قصدًا له في تفسيره.

أما المنهج: فأصله في اللغة النهج وهو الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج وضح[٢]... قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وفي المعجم الوسيط: «نهج الإنسان الطريق سلكه وبيَّنه... والمنهاج والمنهج: الخطة المرسومة، ومنه منهاج الدراسة ومنهاج التعليم؛ وجمع المنهج والمنهاج: مناهج»[١].

وفي الاصطلاح تعرّف مناهج المفسرين بـ: «الخطط العلمية الموضوعية المحددة التي التزم بها المفسرون في تفاسيرهم».

وبناءً على ما سبق فقد اتضح الفرق الكبير بين الاتجاه والمنهج، فاتجاه المفسر هو ما يغلب على قصده من التفسير، ومنهجه خطته العملية التي يصل بها إلى هذا الهدف الذي قصده.

فهل يسوغ حينئذٍ أن نعدّ التفسير العلمي منهجًا بمعنى أنه مجرد خطة وطريقة يسير عليها المفسر أم أنه في حقيقة الأمر هدف وقصد يسعى المفسر

إليه من خلال مناهج متفاوتة يسلكها أهل التفسير العلمي للوصول إلى هدفهم بدليل اختلاف الطريقة والخطة بين من يؤلفون في التفسير العلمي، فمنهم من يجمع الآيات المتعلقة بموضوع علمي تجريبي محدد في مكان واحد ثم يفسّرها تفسيرًا علميًّا، ومنهم من يسير على حسب ترتيب الآيات في المصحف فيفسر الآيات ذات المضامين العلمية الكونية في مواضعها، ومنهم من يتوسع فيقبل النظريات والفرضيات، ومنهم من يقتصر على الحقائق العلمية دون سواها مع أنهم جميعًا يتّحدون في القصد الذي اتجهوا إليه، وهو استخدام مكتشفات العلم الحديث في إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

***

تاريخ التفسير العلمي وأبرز المؤلفات فيه

تاريخ التفسير العلمي

مع أن العصر الحديث شهد طفرة هائلة في المؤلفات في التفسير العلمي، إلا أن بدايات ظهور هذا اللون من التفسير ترجع إلى القرن الخامس الهجري، وتحديدًا إلى أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) الذي دافع عن هذا الاتجاه ودعا إليه بقوة، لأن «العلوم كلها داخلة في أفعال الله عزَّ وجلَّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارات إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظارة واختلف الخلائق في النظريات والمقولات ففي القرآن رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها» .

وزاد الغزالي في إيضاح تأييده للتفسير العلمي في كتابه: جواهر القرآن حيث سمى الفصل الخامس منه: «كيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن»، فذكر علوم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، ثم مثّل ببعض الآيات التي لا يتم تفسيرها في رأيه إلا بمعرفة بعض العلوم، كعلم الطب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، وعلم الهيئة والفلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ

قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [ـ ٣٩]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد:٦]، و ـ ه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] وعلم تشريح ـ عضاء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[1] [الانفطار: ٦-٧].

وخلال القرن السادس برز الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)بوصفه علمًا ضخمًا من أعلام التفسير العلمي من خلال تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) بل إنه اشتد كثيرًا على من لا يرى هذا التوجه، ووصفهم بالجهل والحمق فقال: «ربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله ـ تعالى ـ من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته...» .

أما ابن أبي الفضل المرسي ـ ت ٦٥٥هـ ـ فقد نقل عنه السيوطي قوله عن القرآن: «قد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل، مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك» .

وفي القرن الثامن الهجري ظهر بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) كمؤيد قوي للتفسير العلمي حيث عقد فصلًا في كتابه (البرهان في علوم القرآن) عنوانه: في القرآن علم الأولين والآخرين. قال فيه: «وفي القرآن علم الأولين والآخرين وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه

الله تعالى» .

أما جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) فقد أكد على تأييده التفسير العلمي فقال بعد أن ساق كلام ابن أبي الفضل المرسي السابق في تأييد التفسير العلمي: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات» .

ولا يمكن للباحث أن يُغفل أعلامًا أيّدوا هذا الاتجاه كالبيضاوي (ت ٧٩١هـ) في أنوار التنزيل، والنيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في غرائب القرآن؛ والألوسي (ت ١٢٧٠هـ) في روح المعاني؛ ومع ذلك فالملاحظ هو القلة النسبية لأعداد المهتمين بالتفسير العلمي، فعلى امتداد ما يقارب ثمانية قرون لم يستطع الباحثون في اتجاهات التفسير أن يجدوا أكثر من ثمانية مفسرين اهتموا بالتفسير العلمي، وهو عدد قليل بالنسبة للمفسرين على امتداد القرون.

كما أن معظم هؤلاء المفسرين الثمانية لم يمارسوا التفسير العلمي عمليًّا في تفاسيرهم بحيث يصح اعتباره اتجاهًا لهم، بل إنهم اكتفوا بالتأييد النظري والدعوة إلى التفسير العلمي، يُستثنى منهم الفخر الرازي الذي كان رائدًا

بحق للتفسير العلمي ومارسه عمليًّا في تفسيره: مفاتيح الغيب .

فإذا أضفنا لذلك أن مصطلح التفسير العلمي ذاته لم يكن موجودًا قبل العصر الحديث وأن مفهوم التفسير العلمي عند السابقين اقتصر على استخراج أصول العلوم والصنائع من القرآن، أو الدعوة العامة إلى التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وعجائب قدرة الله تعالى في خلق الإنسان والحيوان، فإننا نجزم حينئذ بصواب عدِّ التفسير العلمي اتجاهًا معاصرًا حديثًا في التفسير، لا سيما وقد كثر المهتمون به في العصر الحديث، وشاعت المؤلفات فيه وانتشرت بشكل غير مسبوق وأُفرد بمصنفات مستقلة، واستخدمت وسائل التقنية الحديثة في نشر التفسير العلمي عبر التسجيل الصوتي أو المرئي، وعبر مواقع شبكة الإنترنت فضلًا عن نشر الكتب والأبحاث والمقالات والمحاضرات في مجال التفسير العلمي وصاحب ذلك إنشاء (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، التي تتبع رابطة العالم الإسلامي ومقرها مكة المكرمة وتهتم بإقامة المؤتمرات والندوات والمحاضرات، وطباعة الكتب والدوريات المتعلقة بالتفسير العلمي.

أبرز المؤلفات في التفسير العلمي

يمكن تقسيم المؤلفات إلى قسمين:

أولهما: الدراسات التأصيلية النظرية التي تناولت التفسير العلمي وحكمت له أو عليه.

القسم الثاني: المؤلفات التي مارس أصحابها التفسير العلمي عمليًّا في كتبهم.

ومع التأكيد على صعوبة حصر جميع المؤلفات لكثرتها إلا أن المقصود من هذا المطلب هو الرصد التاريخي لمسيرة التفسير العلمي وشيوعه في العصر الحديث دون التزام باستقصاء جميع ما كتب في هذا المجال.

القسم الأول: أبرز الدراسات التأصيلية النظرية حول التفسير العلمي:

١- التفسير العلمي للقرآن في الميزان. د. أحمد عمر أبو حجر.

٢- التفسير العلمي للقرآن الكريم. د. عبد الله الأهدل.

٣- اتجاهات التفسير في العصر الحديث. د. عبد المجيد المحتسب.

٤- اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث. د. عفت الشرقاوي.

٥- اتجاهات التفسير في العصر الحديث. د. مصطفى الحديدي الطير.

٦- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر. د. فهد الرومي.

٧- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر. د. محمد إبراهيم شريف.

٨- تيارات التفسير في مصر والشام في العصر الحديث. د. فضل عباس.

٩- مناهج المفسرين. د. مصطفى مسلم.

١٠- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين . د. صلاح الخالدي.

١١- مباحث في إعجاز القرآن. د. مصطفى مسلم.

١٢- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. عبد المجيد الزنداني.

١٣- الفرقان في إعجاز القرآن عبد الكريم الحميد.

١٤- إعجاز القرآن الكريم. د. فضل حسن عباس.

القسم الثاني: أبرز المؤلفات التي مارس أصحابها التفسير العلمي:

١- الجواهر في تفسير القرآن الكريم. طنطاوي جوهري.

٢- العلوم الطبيعية في القرآن. يوسف مروة.

٣- الإعجاز العلمي في القرآن. أحمد عبد السلام الكرداني.

٤- القرآن ينبوع العلم والعرفان. علي فكري.

٥- كشف الأسرار النورانية القرآنية. محمد أحمد الإسكندراني.

٦- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن. حنفي أحمد.

٧- الكون والإعجاز العلمي للقرآن. منصور حسب النبي.

٨- ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان. محمود شكري الآلوسي.

٩- مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية. أحمد محمد الصدِّيقي الغماري.

١٠- القرآن والعلوم الحديثة. محمود أبو الفيض المنوفي.

١١- الإعجاز العلمي في القرآن. د. البشير التركي.

١٢- القرآن والكشوف الحديثة. وحيد الدين خان.

١٣- معجزة القرآن. د. نعمت صدقي.

١٤- القرآن وإعجازه العلمي. محمد إسماعيل إبراهيم.

١٥- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. عبد الرحيم ماردِيني.

١٦- الإسلام والطب الحديث. عبد العزيز إسماعيل.

١٧- الإسلام في عصر العلم. محمد أحمد الغمراوي.

١٨- الإعجاز الطبي في القرآن. د. السيد الجميلي.

١٩- بين الدين والعلم. عبد الرزاق نوفل.

٢٠- القرآن والطب. أحمد محمود سليمان.

٢١- القرآن والطب. د. الحاج محمد وصفي.

٢٢- القرآن والعلم الحديث. عبد الرزاق نوفل.

٢٣- لفتات علمية في القرآن. يعقوب يوسف.

٢٤- تنبيه العقول الإنسانية لما في القرآن من العلوم الكونية. محمد بخيت المطيعي.

٢٥- الغذاء والدواء في القرآن الكريم. جمال الدين مهران.

٢٦- القرآن والعلم. محمد جمال الدين الفندي.

٢٧- مع الله في السماء. أحمد زكي.

٢٨- من روائع الإعجاز في القرآن الكريم. محمد جمال الدين الفندي.

٢٩- التوحيد. عبد المجيد الزنداني.

٣٠- توحيد الخالق. عبد المجيد الزنداني.

٣١- علم الأجنة في ضوء القرآن. عبد المجيد الزنداني وآخرون.

٣٢- إنه الحق. عبد المجيد الزنداني.

٣٣- إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر. عبد المجيد الزنداني وآخرون.

٣٤- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الارتفاعات العالية والإحساس بالألم. عبد المجيد الزنداني وآخران.

٣٥- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار. عبد المجيد الزنداني وآخرون.

٣٦- آيات الله في الآفاق. عبد المجيد الزنداني.

٣٧- آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. د. زغلول النجار.

٣٨- من آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن. د. زغلول النجار.

٣٩- صور من تسبيح الكائنات لله. د. زغلول النجار.

٤٠- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الكون والماء. د. سليمان الطراونة.

٤١- من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل. د. عبد المنعم الحفني

٤٢- الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم. د. صادق الهلالي ود. حسين اللبيدي.

٤٣- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات. د. قطب فرغلي ود. السيد زيدان.

٤٤- الإعجاز العلمي في القرآن. حمزة الصيرفي.

٤٥- تفسير الآيات الكونية. د. عبد الله شحاتة.

٤٦- معجزة القرآن. محمد متولي الشعراوي.

٤٧- التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث. د. موريس بوكاي.

٤٨- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. د. زكريا هميمي.

٤٩- الإعجاز العلمي في القرآن. محمد السيد أرناؤوط.

٥٠- إعجاز القرآن على مر الأزمان. غنيم كارم السيد.

٥١- الجانب العلمي في القرآن. د. صلاح الدين خطاب.

٥٢- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن. د. سليم عبد الحليم.

٥٣- الإعجاز العلمي في القرآن. سامي محمد علي.

٥٤- حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم. د. توفيق علوان.

٥٥- القرآن والعلم. عبد الرزاق نوفل.

٥٦- أضواء من القرآن على الإنسان. عبد الغني الخطيب.

٥٧- خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د. محمد علي البار.

٥٨- القرآن في عصر العلم. محمد أحمد الغمراوي.

٥٩- القرآن الكريم والعلوم الحديثة. أحمد كامل ضو.

٦٠- الكون بين العلم والدين. جمال الدين الفندي.

***

التفسير العلمي بين الرفض والقبول

أبرز المعارضين للتفسير العلمي وأدلتهم

انتقد بعض العلماء التفسير العلمي واختاروا المنع منه لما يؤدي إليه من مفاسد في تفسير كلام الله تعالى، والذي يعنينا في هذا المقام ذكر أبرزهم دون مناقشة حججهم وبيان مدى قوتها أو ضعفها فمن هؤلاء:

١- **الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)**: وهو أشهر المعارضين للتفسير العلمي على الإطلاق، حيث قرر في كتابه (الموافقات) أن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلومًا فالزيادة على ذلك تكلُّف، ثم مثّل على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦] ، فمن فسّرها بعلم الهيئة فقد أتى عملًا غير سائغ، لأن ذلك مما لا تعرفه العرب وقت نزول القرآن، والقرآن إنما أُنزل على معهودهم.

ثم ذكر تكلُّف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ بعلومهم بآيات من القرآن، وأحاديث عن النبي ﷺ، مثل احتجاج أهل العدد بقوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٣]. والهندسة بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] ، وأهل التعديل النجومي بقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] .

٢- **محمود شلتوت شيخ الأزهر (ت ١٩٦٤م)**: وقد طالب في مقدمة

تفسيره بتنزيه القرآن عن استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه احتفاظًا بقدسيته وجلاله.

ورأى أن هذا اللون من التفسير أفسد على أصحابه أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله.

وأشار إلى خطأ هذا التوجه لأن القرآن ليس كتابًا لنظريات العلوم ودقائق الفنون، ولحمل هذا التوجه أصحابه على التكلُّف المذموم، وتعريضه القرآن للدوران مع مسائل العلوم، وتحميله تبعات الخطأ في المسائل العلمية .

٣- **أمين الخولي (ت ١٩٦٥م)**: حيث ذكر أدلة الشاطبي في الاعتراض على التفسير العلمي ثم أضاف إليها أدلة تؤيد المنع منه من نواحٍ ثلاث:

أ- **الناحية اللغوية**: حيث تم تفسير ألفاظ القرآن من خلال التفسير العلمي بمعانٍ وإطلاقات لم تُعرف لها أثناء نزول القرآن.

ب- **الناحية الأدبيَّة والبلاغيَّة**: فكيف يخاطب الناس وقت نزول القرآن ويُتحدُّون بمعانٍ لم تعرفها الدنيا إلا بعد نزول القرآن بقرون.

جـ- **الناحية الدينيَّة أو الاعتقادية**: فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن، وهي جوامع لا تنضبط بل تتغيّر سريعًا.

هذه العلوم الدخيلة. وقد ألف في ذلك كتابًا سمّاه: (الفرقان في بيان إعجاز القرآن) زادت صفحاته عن ٤٧٠ صفحة، وقال في مقدمته: «والمراد من هذا الكتاب النظر في هذا الطوفان الغامر المسمى: إعجاز القرآن العلمي، بزعم تصديق كلام الله وتصحيحه وتأييده هذه النظريات التي يُطلق عليها اسم العلم، التي وفدت من ملاحدة أصّلوا علومهم ونظرياتهم على جحود الخالق سبحانه» .

أبرز ما استدل به المعارضون للتفسير العلمي:

يمكن تلخيص أدلة للمعارضين للتفسير العلمي على النحو التالي:

١- **التفسير العلمي** تكلف، لأن المراد من خطاب القرآن معلوم لدى السابقين، وما زاد على ذلك فهو تكلف منهي عنه.

٢- **التفسير العلمي** يجعل القرآن كتاب تفصيل لدقائق العلوم، وغرض القرآن أسمى من ذلك، فهو كتاب هداية وإرشاد.

٣- **التفسير العلمي** مدعاة للزلل لدى أكثر من خاضوا فيه بتحميل النصوص ما لا تحتمل لموافقة الكشوفات العلمية الحادثة.

٤- **التفسير العلمي** بدعة جديدة لم تؤثر عن الصحابة والسلف وأهل التفسير في القرون المفضلة.

٥- **التفسير العلمي** يعرِّض القرآن للتكذيب حين تنقض النظريات

والفرضيات العلمية التي يربطها أهل التفسير العلمي بالآيات القرآنية.

٦- **التفسير العلمي** يتجاوز بالألفاظ القرآنية حدود الاستعمال في معهود العرب وقت نزول الآيات إلى معانٍ لم تكن معروفة لهم ذلك الوقت.

٧- **التفسير العلمي** يتنافى مع كون القرآن خطابًا للناس كافّةً العوّام والعلماء، فالعامي لا يفقه القضايا العلمية التي يتعرض لها أهل التفسير العلمي.

٨- **التفسير العلمي** مفاسده أكبر من مصالحه، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

ملاحظات عامة على أقوال المعارضين للتفسير العلمي:

وبعد استعراض أقوال أبرز المعارضين للتفسير العلمي يجدر التأكيد على أمور منها:

أولًا: أن هؤلاء المعارضين قد قدّموا خدمة كبرى للتفسير العلمي وأسهموا في تحسن مسيرته، نظرًا لشدّة نقدهم وقوة معارضتهم حيث سعى أهل التفسير العلمي إلى تلافي الأخطاء التي تنتقد عليهم، والتدقيق فيما يكتبونه، بدليل أن الكثير من المؤلفات المعاصرة في التفسير العلمي تخلو من كثير من الملاحظات التي أبداها المعترضون.

ثانيًا: أن تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري كان سببًا واضحًا للموقف الرافض للتفسير العلمي عند الكثير من المعترضين، بدليل كثرة ذكرهم له وتمثيلهم ببعض ما جاء فيه من شطحات.

ثالثًا: تفاوت حجج المعارضين من حيث القوة والضعف، وليس المقصود هنا هو الرد التفصيلي على الضعيف منها، لكن المقصود هو إثبات المعارضة لهذا اللون من التفسير.

رابعًا: نقل اللاحق من المعارضين عن السابق، وكثرة ترداد الحجج والأدلة بأساليب مختلفة مع حدّة العبارة أحيانًا، مما أطال الجدل وأوحى لبعض الباحثين بشدّة الخصومة، وصعوبة الفصل فيها بين المؤيدين والمعارضين، مع أن الواقع غير ذلك.

خامسًا: أن هناك مجموعة أخرى من المعارضين للتفسير العلمي مثل الأستاذ عباس العقاد ـ المفكر والكاتب المشهور ـ والأستاذ إسماعيل مظهر ـ صاحب مجلة المصور ومحررها ـ وقد عدّهما بعض الباحثين ضمن المعارضين، لكنني لم أذكرهما هنا لعدم تخصصهما في هذا المجال؛ لأن المقصود في مثل هذه الأبحاث التركيز على أقوال أهل التخصص المرتبطين بالبحث العلمي.

سادسًا: تم تصنيف بعض الأعلام من قبل بعض الباحثين المعاصرين على أنهم معارضون للتفسير العلمي دون تمحيص لموقفهم الحقيقي، تأييدًا أو معارضة للتفسير العلمي، ثم تتابع الباحثون على نقل هذا التصنيف حتى أصبح شبه مسلَّم به عند كثير من المتخصصين، ولذا فسوف أحاول في المبحث التالي تحقيق موقف بعض من صُنّفوا معارضين للتفسير العلمي.

أبرز المؤيدين للتفسير العلمي وأدلتهم

يمكن الجزم بأن المؤيدين للتفسير العلمي أكثر عددًا من المعارضين كما أنهم يزدادون على مر السنين في مقابل انحسار أعداد المعارضين.

ولئن كنا قد ذكرنا النصوص الدالة على معارضة المعارضين في المبحث الأول من هذا الفصل، فإننا لسنا في حاجة لنقل نصوص تدل على التأييد عند المؤيدين لأن مجرد تأليفهم الكتب في مجال التفسير العلمي يعد دليلًا على تأييدهم هذا النوع من التفسير.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أمرين:

الأول: تفاوت المؤيدين في درجة التأييد للتفسير العلمي فإن منهم من يدعو إلى وضع جملة من الضوابط والشروط لتأييده وقبوله، ومنهم من يؤيد التفسير العلمي ويستخدمه دون قيود.

الثاني: اختلاف المؤيدين في تخصصهم العلمي، فمنهم العالم الشرعي المتخصص، ومنهم الطبيب والفلكي والمهندس والأديب والواعظ، وكل هؤلاء يشتركون في دعوتهم إلى التفسير العلمي وتأييدهم له.

أبرز المؤيدين للتفسير العلمي:

١- أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كتابه: (معجزة القرآن).

٢- الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره: (مفاتيح الغيب).

٣- ابن أبي الفضل المرسي (ت ٦٥٥هـ) فيما نقله عنه جلال الدين السيوطي في: (الإتقان).

٤- النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في تفسيره: (غرائب القرآن ورغائب الفرقان).

٥- البيضاوي (ت ٧٩١هـ) في تفسيره: (أنوار التنزيل).

٦- بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في كتابه: (البرهان في علوم القرآن).

٧- جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه: (الإتقان في علوم القرآن).

٨- الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) في تفسيره: (روح المعاني).

٩- محمد عبده (ت ١٩٠٥م) في تفسير (جزء عمّ) وما نقله عنه تلميذه في (المنار).

١٠- محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير (المنار).

١١- مصطفى صادق الرافعي (ت ١٩٣٨) في كتابه: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

١٢- محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨) في كتابيه: (النبأ العظيم)، و(مدخل إلى القرآن الكريم).

١٣- محمد أحمد الغمراوي في كتابه (الإسلام في عصر العلم).

أبرز أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

١ - عموم بعض آيات القرآن الدالة على شموله:

كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

٢ - القرآن يدعو إلى التدبر والنظر في الكون والمخلوقات:

أبرز أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

١ - عموم بعض آيات القرآن الدالة على شموله:

كقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

٢ - القرآن يدعو إلى التدبر والنظر في الكون والمخلوقات:

كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

٣- كثرة استدلال القرآن على علم الله وحكمته وقدرته بظواهر كونية:

ولو لم يكن البحث في هذه الظواهر مشروعًا لما كررها القرآن ومن هذه الظواهر تعاقب الليل والنهار وأحوال السماء والشمس والقمر والنجوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٤١].

٤- الأصل هو جواز التفسير بالرأي، والتفسير العلمي إنما هو نوع من أنواع التفسير بالرأي يجتهد فيه المفسر في بيان معنى الآية، ومن قال بالمنع منه هو المطالب بالدليل على تحريمه أمَّا من يستصحب أصل الجواز فلا يطالب بدليل على جواز عمله.

٥- أن كل ما يدخل تحت نص قرآني عام فإنه يعدُّ مما نص عليه القرآن ومن ذلك قضايا التفسير العلمي.

٦- قد يكون العلم الحديث ضروريًّا للفهم الدقيق لمعاني بعض الآيات، فربما صار التفسير العلمي من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى.

٧- الفوائد الكبيرة المترتبة على التفسير العلمي ومنها:

أ- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أو على الأقل زيادة إقامة الحجة عليهم.

ب- ملأ النفوس تعظيمًا للخالق عزَّ وجلَّ بإدراك عجائب خلقه وتقديره.

جـ- زيادة إيمان المؤمنين ويقينهم بصدق ما هم عليه من الحق وقد قال إبراهيم لربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

٨- التفسير العلمي سبيل مهم للوصول إلى الإعجاز العلمي، والإعجاز العلمي يعجز الملحدون أن يجدوا فيه موضعًا للتشكيك، فالحقائق العلمية المذكورة في القرآن يتفق أهل العقول على كونها دليلًا على أن من أنزل القرآن هو خالق هذه الحقيقة العلمية.

***

الترجيح بين أدلة المانعين والمجيزين وضوابط التفسير العلمي المقبول

عند التأمل في أدلة المعارضين والمؤيدين يتضح للباحث ما يلي:

أولاً: قوة الأدلة التي ساقها كل طرف، وأهمية النظرة العلمية المتوازنة في أدلة الفريقين معًا.

ثانيًا: لعل من أقوى أدلة المؤيدين ـ إن لم يكن أقواها على الإطلاق ـ أن الأصل هو جواز التفسير بالرأي، وهو ما استقر عليه العمل عند العلماء دون نكير، ولا ريب أن التفسير العلمي نوع من أنواع اجتهاد المفسر برأيه في زيادة إيضاح معنى الآية، وهذا الدليل يجعل مهمة المانعين صعبة في إقناع المتخصصين بالمنع من التفسير العلمي، فهو ليس بدعة غير معروفة وإنما هو تفسير بالرأي والاجتهاد بحسب العلوم والمعارف التي تظهر للمفسر ويقتنع بصوابها.

ثالثًا: أما ما ساقه المعترضون من أدلة تؤكد وقوع الزلل لدى أكثر الخائضين في التفسير العلمي، وأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة فهي حجة لا تثبت عند النقد العلمي فوقوع الزلل ليس مبررًا للمنع بل يكفي أن توضع القيود الحائلة دون الوقوع في الخطأ، ولو تم التوسع في العمل بهذا المفهوم لربما خرج من يمنع من التفسير بالمأثور لوقوع الزلل

عند كثير ممن خاضوا فيه فكانوا كحاطب الليل، وجمعوا من الغرائب والمناكير والموضوعات ما يجزم المتخصصون بأن ضرره أكبر من نفعه، ومع ذلك فلا يسوغ المنع من التفسير بالمأثور خشية من الوقوع في أخطاء كالتي وقع فيها الثعلبي في (الكشف والبيان) على سبيل المثال..

رابعًا: أهمية ما ذكره المعترضون من أدلة والحاجة إلى اعتماد أكثرها كضوابط لقبول التفسير العلمي.

وخلاصة الأمر أن التفسير العلمي من أنواع التفسير بالرأي وأن منه ما يكون محمودًا جائزًا حين يصدر عن علم أو غلبة ظن، ولا يتعارض مع الكتاب والسنة، ويكون صاحبه عالمًا باللغة العربية وأصول الشريعة الإسلامية عاملًا بضوابط قبول التفسير العلمي، ومن التفسير العلمي ما يكون مذمومًا محرمًا حين يصدر عن جهلٍ أو هوًى أو عنهما معًا، ولا يلتزم صاحبه بضوابط قبول التفسير العلمي، وبالتالي فالأصل هو جواز التفسير العلمي ولكن بضوابط.

ضوابط التفسير العلمي

اجتهد الباحثون المعاصرون في صياغة ضوابط لقبول التفسير العلمي استنبطوها في الغالب من أدلة المعترضين على التفسير العلمي، ولا سيما الشاطبي والخولي ومحمود شلتوت، لكن الذي يلفت نظر الباحث في هذا السياق خلو هذه الضوابط عندهم من ضرورة توافر شروط المفسر فيمن يفسر القرآن تفسيرًا علميًّا، ولو تم إعمال هذا الضابط لزالت معظم الأخطاء التي انتقدها المعترضون لظهورها في كتب التفسير العلمي.

ومعلوم أن الكثير ممن كتبوا ويكتبون في التفسير العلمي ليسوا من أهل الاختصاص العلمي في مجال القرآن وعلومه خصوصًا وفي مجال العلوم

ومن أهم الضوابط التي وضعها العلماء لقبول التفسير العلمي هي:

١- القرآن كتاب هداية وليس كتاب علوم وكونيات.

٢- ترك الإفراط والتفريط، أو عدم تحميل النصوص ما لا تحتمل.

٣- مرونة الأسلوب القرآني، وقبوله وجوهًا من التأويل.

٤- الحقائق العلمية مناط الاستدلال، فيجب الاقتصار عليها والابتعاد عن الفرضيات والنظريات.

٥- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة، فلا يجزم بأن هذه الحقيقة العلمية هي التفسير الوحيد للآية دون سواه بل يبقى دلالة الآية مفتوحة.

٦- استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية، فإذا ظهر تناقض فقد تكون الآية القرآنية غير قاطعة في الدلالة على المقصود، أو قد تكون القضية العلمية غير ثابتة بل هي نظرية أو فرضية.

٧- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة، بسلوك الأسباب الموصلة إلى حقائق المعرفة على وفق سنن الله التي أرشدنا إلى معرفتها.

٨- موافقة اللغة العربية موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.

٩- عدم مخالفة صحيح السنة المرفوعة أو ما له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ.

١٠- موافقة سياق الآية.

١١- التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

١٢- أن يكون التفسير حسب الحقائق العلمية الثابتة دون النظريات.

تعد هذه الضوابط مهمة جداً في الحد من تجاوز من يتناوزل هذا النوع من التفسير على الخروج عن المقاصد الحقيقية للقرآن الكريم، بما يجعل من التفسير العلمي مقبولاً حتى عند كثير ممن عارضوه في أول الأمر.

أمثلة تطبيقية على التفسير العلمي المردود والتفسير العلمي المقبول

مثال التفسير العلمي المردود قوله تعالى:

﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن:٣٣].

فقد فسر بعض علماء التفسير العلمي هذه الآية حسب منهجهم فيه بما توصل إليه العلم الحديث من غزو الفضاء، ومحاولة الوصول إلى الكواكب، فهذا هو النفاذ عندهم، والسلطان هو العلم التقني، ويرون بهذا أن القرآن سبق بالدعوة إلى غزو الفضاء.

ومما يُردّ به على هذا التفسير:

١- **مخالفة دلالة اللغة** فإن معنى النفاذ: «مجاوزة الشيء والخلوص منه، يقال: نفذ السهم من الرمية إذا خالط السهم جوف الرمية وخرج طرفه من الشق الآخر وسائره فيه» .

وهذا ما لم يتحقق لرجال الفضاء، فلم يتجاوزوا عالمنا لعالم آخر كما أن السلطان في اللغة يطلق على الحجة والقدرة .

وفي استخدام مصطلح (غزو الفضاء) نظر فالغزو يكون لطرف آخر على عداوة مع الطرف الغازي، وفي الثقافة الغربية المعاصرة تصوير للعلاقة بين الخالق والمخلوق على أنها علاقة تحدٍ وحرب لأن الخالق ـ تعالى عما

يقولون ـ أراد منع الإنسان من الوصول إلى العلم ليظل خاضعًا له، لكنه تحداه ووصل إلى المعرفة كما في أسطورة إيزيس المزعومة فعاقبه بحمل حجر كبير والصعود به إلى أعلى الجبل، ثم العودة من جديد أبد الدهر.

٢- **مخالفة أصول البلاغة العربية:** ذلك أن المقام في هذه الآيات هو مقام تحدٍ وإعجاز.

فالمقصود نفي القدرة لا إثباتها؛ لأنه لا يصح أن يقال في التحدي: لا يمكنك فعل هذا الأمر إلا بعلمك وقدرتك، فليس هذا من بلاغة الأسلوب في التحدي.

٣- **تقديم ذكر الجن على الإنس يؤكد على معنى التحدي والإعجاز:** لأنه قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨] وهي سابقة في النزول على سورة الرحمن .

وقد أكد ذلك بنفي الانتصار لإتمام معنى التعجيز بقوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥]. فلا يصح أن يقال أن غزو الفضاء بصورته اليوم انتصار، لأن الله قد نفاه وتوعد بإرسال الشواظ المحرق على من يحاول النفاذ من أقطار السموات والأرض.

٤- **مخالفة سياق الآيات:** فحين نتأمل الآيات نجدها تتحدث عن فناء الخلق وبقاء الخالق ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وأن جميع الخلق يفتقرون إليه ويسألونه حاجاتهم ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]. وأنه سبحانه يهدد الجن والإنس بأنه سيفرغ لحسابهم يوم القيامة ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾، وهم لا يستطيعون الإفلات من سلطانه، بل يخضعون لحسابه وجزائه، وبهذا يتضح خطأ التفسير العلمي الذي قالوا به لأنه مخالف لسياق الآية ولغتها وبلاغتها.

٥- **هذه الآية تشبه قوله تعالى:** ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢٢].

والأولى تفسير القرآن بالقرآن ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

وكذلك من من الامثلة تفسير العلماء الدابة في قوله تعالى في الحديث الدابة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢]. بالأقمار الصناعية في الفضاء، وفيه مخالفة للسنة حيث ورد النص على خروج الدابة ضحى وأنها من علامات الساعة الكبرى.

وتفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢]، بالبترول والغاز عندما زلزلت الأرض وحركت بالآلات وهو تفسير فيه مخالفة لسياق الآيات التي تتحدث عما يحصل يوم القيامة وليس في الدنيا كما أنه مخالف للتفسير النبوي الذي نص على أن إخبارها شهادتها على كل عبد وأمه بما عمل على ظهرها[٢].

ومن الأمثلة على التفسير العلمي المقبول قوله تعالى:

المثال الأول: عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

أشار د. زكريا هميمي إلى أن هذه الآية فصّلت أطوار الخلق ووصفتها وصفًا مبهرًا لا من ناحية المظهر الخارجي فحسب، ولكن أيضًا من حيث ميكانيكية عملية التخليق الداخلية التي تتم في كل طور منها.. حيث تم تقسيم مراحل تطور الجنين إلى ثلاث مراحل رئيسية: النطفة، التخليق (المرحلة الجنينية) مرحلة النشأة خلقًا آخر (مرحلة الحميلية) وحتى قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كان علماء الأجنة منقسمين إلى فريقين في هذه المسألة.

منهم من يرى أن الإنسان يكون مخلوقًا (خلقًا تامًّا في الحيوان المنوي في صورة قزم. ومنهم من يعتقد بأن الإنسان يخلق خلقًا تامًّا في بيضة المرأة بينما بين القرآن مسئولية كل منهما في عملية التخليق ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق:٥-٧].

الصلب: الظهر. **الترائب:** وهي عظام ما بين الثديين في المرأة. وكلمة نطفة تدل على محدودية السائل، وهذا يتفق مع حقائق العلم الحديث، وورد ذكر النطفة في القرآن في اثني عشر موضعًا، ووصف الرحم بأنه (قرار)

و(مكين) ينطبق على ما عرفه علماء الأجنة بعد نزول الآية بقرون من كونه أكثر المواضع أمانًا وحماية في جسد المرأة.

ثم أشار إلى معنى العلقة والمضغة والعظام في مرحلة التخليق التي تبدأ من الأسبوع الثاني وحتى نهاية الثامن والعلقة في اللغة تأتي بمعنى التعلق والإلتصاق بالشيء، وبمعنى الدم الغليظ الجامد شديد الحمرة وبمعنى دودة الماء التي تلتصق بالحيوانات وتتغذى بدمائها وهو ما ينطبق على الجنين في هذه المرحلة حيث يلتصق بالمشيمة ويتغذى من دماء الأم، وأما المضغة فمن معانيها ما لاكته الألسن، وقطعة اللحم بقدر ما يمضغ لا استبانة فيها ولا تمايز؛ ولا شكل فيها ولا تخطيط، وهو ما ينطبق على الجنين في هذه المرحلة، حيث يبدأ ظهور الكتل البدنية المعروفة بالفلقات بمظهر يشبه طبع الأسنان في المادة الممضوغة.

ثم يأخذ ظهر الجنين بالانحناء والتقوس مثلما تستدير المادة الممضوغة قبل البلع، إلى آخر ما فسّر به هذه الآيات تفسيرًا علميًّا مقبولًا .

ومن أمثلة التفسيسر العلمي المقبول

عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

أشار د. صلاح الدين خطاب إلى ما قرره الأطباء بعد قرون من نزول الآية من أن حدود الشعور بألم الكي يكون في الجلد السطحي، فلو احترق الجلد ووصل إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم بدرجة الحالة السابقة لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة في الجلد الخارجي، أما الأنسجة والعضلات الداخلية فالإحساس فيها ضعيف فكأن الآية تبين أن النار كلما أنضجت الجلد الذي يحتوي على أعصاب الإحساس بالألم جُددت هذه الجلود بجلود جديدةٍ ليستمر الشعور بالألم .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

أشار د. أحمد عمر أبو حجر إلى أن وجه التشبيه بين حال الكافر ومن يصعد في السماء صار أكثر وضوحًا نتيجة ما ثبت من كون الأكسجين الموجود في الغلاف الجوي يقل كلما صعد الإنسان في طبقات الجو إلى أعلى،

حتى تصبح كمية الأكسجين اللازم لعملية التنفس غير كافية فيشعر الإنسان بالاختناق وضيق الصدر وقد يصل إلى مرحلة عدم إمكانية الحياة[1].

وهكذا نلاحظ أن الأمثلة الاخيرة كلها كانت خاضعة لشروط وضوابط التفسير العلمي التي حددها العلماء مما جعلها تحافظ على مقاصد الشريعة الأساسية ولا تخرج عنها ولا تعارضها ولا تتعارض مع نصوصٍ ثابتةٍ من القرآن الكريم أو السنة النبوية وبالتالي كل هذا جعل من هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم تفسيراً مقبولاً.

***